القيمّ الأدبيّة والتّاريخيّة في الشّعر السّياسي لفتح وهران قراءة في رجز الحلفاوي والثّغر الجماني والحلل السّندسيّة

the historical and literary values in the political poetry of fatah and oran in "rajaz al halfawi and attarer al gemani and al holal sendosiya"

الدكتور: شايدة سفيان

قسم اللغة والأدب العربي-جامعة مصطفى اسطمبولي-معسكر(الجزائر)

sofiane.chaida@univ-mascara.dz

تاريخ الإيداع: 2020/10/01 تاريخ القبول: 2021/04/18 تاريخ النشر: 2021/11/04

ملخص: لقد شهدت وهران عبر التّاريخ حملات عسكرية أوربية انتقامية توالت عليها مذ سقوط الأندلس، ممّا ترك في نفوس الأدباء و الشّعراء أثرا مشهودا، فلقد دوّن مجموعة من الأدباء هذه الفتوحَ من أمثال الحلفاوي والراشدي وأبي راس وغيرهم، فتحدّثوا في مجمل في مدوّناتهم الشّعرية عن مؤسسيها وعن الدّول الّتي تعاقبت على هذه المدينة، مُصوِّرين الحياة العثمانية في الجزائر، بطريقة شعرية تَظهر عليها تلك الخصائص العامة للعصر العثماني في أسلوبه ولغته، وعليه سنحاول أن نعرض في هذا المقال لجانبيَن مهميَّن لهذه القصائد الأدبية لهؤلاء الشعراء المذكورين (الحلل السندسية/الثغر الجماني/ قصيدة الحلفاوي) شق أدبي والآخر تاريخي .

الكلمات المفتاحية: فتح؛ وهران؛ العثمانيين؛ رجز الحلفاوي؛ أبو راس؛ ابن سحنون؛ الإسباني.

Abstract:

Oran has witnessed throughout history, successive military campaigns since the fall of Andalusia, starting with the Portuguese, the Spanish and the French. A number of writers and poets, such as Al-Halafawi, Al-Rashdi, Abu Ras, and others, had been affected by these events, especially the first and the second conquest of Oran. The aforementioned literary personalities left poems describing the conquest, the history and the events that happened in Oran. They broached its founders

and the the successive countries that invaded it, painting mainly the military life and the Ottoman victories in a way that reflects the general characteristics of the Ottoman era in its style and language. Therefore we will try to present in this article the city of Oran and how these poets portrayed through the following poems (Al-Halal Al-Sandani / Al-Thaghar Al-Jamani / Al-Halafawi poem) in a historical political poetic form.

key words: Conquest; Oran; the Ottomans; Ragz al-Halafawi; Abu Ras; , Ibn Sahnoun; the Spanish;

1- مقدمة:

لقد ارتبطَ الأدبُ في العهد العثماني بالسّياسة مدحا للحكّام أو تشجيعَهم للجهاد والانتصارات العسكرية على العدوّ أو ما كان تخليدا لها، وتشكّل هذا الأدبُ في قوالبَ نثريةٍ وأخرى شعرية، إلّا أنّ هذا الأخيرَ برز بشكل وافر أثناء وجود الاحتلال الإسباني، بغيةَ الحثِّ على المقاومة والجهاد، فـ"حقا إنّ النّزاع بين الجزائر وإسبانيا كان باعثا لعدد من الشّعراء على الدعوةِ للجهاد وتمجيدِ النصر، وهو باعث سياسي ديني لا غبار عليه"[1].

وقد أذكى هذا الباعثُ قرائحَ الشّعراء الّذين كانوا يَستصرخُون سكان وهرانَ والسلاطين العثمانيين، للقيام بواجب الجهاد والتّحرير، وهذا مذ بدأ الاحتلالُ الإسباني تمتدُ يدُه إلى سواحل شمال إفريقيا، ويتأكّدّ هذا من خلال ما نقله المهدي البوعبدلي في مقدمّته الّتي وضعها لكتاب الثّغر الجماني، نقلا عن محمد التّواتي الذي أنبأ وحذر أهلَ وهران من دخول الإسبان إليها، حيث عبّر عن ذلك بأبيات شعرية قائلا:

يا أهلَ وهرانَ انظروا نظرَشفقة لبلدتكم من قبل أن تتردتي

قبل مجيء المنشآت ببحـــرها وأيّ قلوب عندها مستقرتي

إلى أن قال:

فـــلا تُهملوا أمرالأعـادي فإنَّهم بحـال اجتماع و اتّفاق وشـــدّة

وقد قطعوا قطعا فإن ظفِروا بكم فقد ظفروا طرا بأهـل الـجزيرة

إلى آخر الأبيات...[2]

وهكذا دأب العلماء في مراحل الاحتلال الأول 1708م و الثّاني 1792م تمجيدَ وتخليدَ مآثرَ الفاتحين، واستطاعوا تسجيلَ وتدوينَ مادةٍ تاريخيةٍ وسياسيةٍ، وحتّى الثقافية منها عن هذه المدينةِ، وذلك من خلال آثارهم الأدبية النّثرية منها والشّعرية، نذكر منهم: محمدَ بنَ ميمون في مقاماته النّثرية، الّتي سجّل فيها احتفاءَه بالفتح الأوّل لمدينة وهران، وسمّى كتابَه **التّحفةَ المرضيةَ في الدّولة البكداشية**، الذي تطرّق فيها إلى سيرة الدّاي بكداش فاتح المدينة، مع وصف أهمّ المعارك الّتي خاضها أثناء الفتح، بأسلوب أدبيّ تميّز في أغلبه بمظاهر الفنّية للكتابة النّثرية، الّتي اتّصف بها الأدب في ظل حكم العثمانيين من خلال طغيان الزّخرفة اللّفظية عليها، وسجّل أيضا في طيّاته مجموعةً شعريةً حول مدينة وهران، تسنجدُ وتستصرخُ خلالَها الحكّامَ والمجتمعَ الوهراني للمرابطة في هذا الثّغر والذود عنه.

وفي هذا السّياق التّاريخي للفترة العثمانية في الجزائر، سار مجموعةٌ من الأدباء تمجيدا ومدحا لإنجازات هؤلاء الحُكّام، ظهر ذلك في مدوانتهم التّاريخية النّثرية، كما هو الحال مع بهجة النّاظر لعبد القادر المشرفي، ودليلِ الحيران وأنيسِ السهران للزّياني، والزّهرةِ النّائرة لابن الرقيّة، وعجائبِ الأسفار لأبي راس النّاصر، والثّغرِ الجماني لابن سحنون الرّاشدي، وأُنسِ الغريب لمسلم ابن عبد القادر الوهراني وغيرهم،

أمّا الشّعرُ فلم يتخلّف عن نظيره النّثرِ في التّأريخ للمدن الجزائرية عموما ومدينة وهران على وجه الخصوص، حيث ترك لنا الأدباءُ قصائدَ كثيرةً، حول هذا الفتحِ والتّحريرِ، من بين أشهرها قصيدةُ الحلفاوي، وسينيةُ أبي راس النّاصر، وقصيدة الرّاشدي. وسنحاول في هذا المقال تسليط الضوء على تيك القصائد، من حيث قيّمتُها الأدبية والتّاريخية، غرضَ التّعريف بها وتَبيان دور الأدب والشّعر في تخليد هذه المآثر الخالدة لهذه المنطقة، ثمّ أيضا التّعرفُ والتعريفُ بالأدب الشّعري الجزائري في هذا العهد وفي هذه المنطقة.

2- الشّعر السّياسي في الفتح الأوّل وقيمُه:

2-1 قصيدة الحلفاوي مُؤرّخة لفتح وهران:

وهكذا سنجد للفتح الأوّل قصيدةً مجّدت أحداثَه وخلّدت انتصاراتِه ومدحت صاحبَه مصطفى بوشلاغم، وهي قصيدة للشيخ **المفتي الحلفاوي التّلمساني**، الّذي يعدّ أحدَ هؤلاء الشّعراء، الذين أرّخوا لهذه الأحداث في رجز يقع في اثنين وسبعين بيتا، شرحه عبد الرحمان الجامعي الفاسي ثم الجزائري، **والحلفاوي** هو ما كما ترجم له الجامعي في شرحه قائلا: "فكان من سَارع لامتثال هذا الواجب، مؤدّيا بعض ذلك الحقّ اللّازب، مفتي الحضرة التّلمسانية لهذا الزمان،

المشار إليه في البيان بالبنان، العالِمُ العلَمُ قلمُ اللسان ولسانُ القلم أبو عبد الله سيدي محمد بنُ الحلفاوي التلمساني دارا ونسبا و المالكي مذهبا...."[3] إذ حلّاه باسمى الأوصاف الدالة على مكانته العلمية في حواضر الغرب الجزائري.

2-2 القيمة التّاريخية لهذه القصيدة:

هذه الأرجوزة تُسجّل أحداثا تاريخيةً مهمةً، تصِف فيها دولةَ السلطان محمدِ بكداش، كما سمّاه في النّظم ومدحَه بهذا الاسم من ذلك قوله مادحا له:

أَحاد مَن حَاد عن الخلافة فاستنهضت فتى لها خلافة

أقامه مَحلّ مَن أقامه ولقضاء عنده أقامَه

فكان خيرةً وخيرا ومُنًى وجلبَ نفع دائم ومأمَنا

إلى آخر ما قال في مدحه من أوصاف الشّجاعة والتّحلي بالعلم والجود إلى غيرها من الأوصاف الحميدة، ثمّ وصفِ تجهيز جيشِه خلال رباطه في ثغر وهران، مع تَعداد العَدد والعُدة وذكرِ تواريخ النزول، وتكليفِه لمصطفى باي بوشلاغم والذي يعدّ من أوّل بايات وهران ومنها قوله:

فنهضُوا لله حَزما وأعدّ معهم آلة حرب لا تُعدّ

مِن نحو بارود وكم من مِدفعٍ ومَنجنيق مَاله من مَدفع

مُؤمّرا صهرَه أوزن حُسنا قرما رضى فسار سيرا حسنا

والحازم العرف باي مصطفى وهو في الأقيال فايق مصطفى

وبعدها تحدّث عن الحصار الذي أقامه السّلطان وكيفيةِ دخوله لدار الحرب وطرقِ الفتح والانتصارِ مع تفصيلِ كلّ حدث ومشهد من مشاهد الجهاد في الرباطات والثغور، مُوقعا بذلك بتواريخ دقيقة ،فمن ذلك قوله:

ونُصبت من حولها مَدافع للرمي كل أسد مُدافع

ومُرعدات كُورها في الجو كنجم رجم من سمّاه يهو

تلمع من خلالها البوارق ووقعُها أمضى من الصواعق

إلى أن قال:

فكان باكورةُ ذاك الـفـتــحِ برجَ العيون ضامنا للنُجح

عاشر يوم من جمادى الأخِرا يومِ الثّلاثاء مساء قســـــرا

ثم ختم ذلك بالحديث عن مآل الفرقتين، وختمَ الأرجوزةَ بالثّناء على الله والصّلاة على الخاتم عليه الصلاة والسّلام والتّرضي عن الآل والصّحب. ونستطيع القول بأنَّ هذه الأرجوزةَ تضمّ بين ثناياه معلوماتٍ تاريخيةً مهمّةً، خاصة إذا علمنا أنّ النّاظم ممّن عاصر الفتح وعاينَه.

3-2 القيمة الأدبية لهذه القصيدة:

إنّ هذه الأرجوزةَ -إضافةً إلى أنّها وثيقةٌ تاريخيةٌ سياسيةٌ- هي -لا شكّ- نصٌ أدبي يندرج ضمن النّصوص الإبداعية الجزائرية، التي تُجسّد الأدب في هذا العصر في الجزائر، حيث يَنقل لنا السّماتِ الفنيةَ، الّتي تميّز بها الأدب الجزائري الشّعري في هذه الفترة، الّتي قيل عن أدبها أنّه لم يستطع خلعَ ربقةَ الزخرفةِ اللّفظيةِ، في صُورِها الشّكلية، ولم يتجاوز دائرة سلطة العصر والمؤثرات السّياسية، الّتي جَرّت الأدب بأجناسه المختلفة إلى دنوٍ فني على جميع المستويات الفنية شكلا ومضمونا، وهكذا لم يُباين رجز الحلفاوي هذه السّمة، حتّى عاب عليه شارح المنظومة عبد الرحمان الجامعي كثرةَ اعتناءِه بالمحسنات البديعية[4]، وكذا لم يستطع أيضا الخروجَ من ربقة الأنظام العلمية، الّتي تُسيطر عليها اللّغة الفقهية والدّينية من مديح وغيره، وهنا يؤكد لنا ابنُ سحنون الرّاشدي هذا الحكمَ، حيث ذكر ذلك عند الحديث عن ما قيل في مدح محمّد باي الكبير، فقال :" فقد قيل فيه مِنه مالا يأتي عليه حصرٌ، غيرَ أنّ منه الفقهي الّذي لا يثبُت، إمّا لتكسير مبانيه أو لاختلال معانيه..."[5]، وهذا فضلا على توظيفه لكلماتٍ غيرِ عربية، استجلبها من اللّغة التّركية، كقوله مثلا: " بكداش" وهي كلمة تركية، وهو الحجر القاسي[6]، وقوله "الدّاي" وهي كلمة تركية ومعناه سلطان، وقوله: "فايق" وهي كلمة تركية بمعنى كبير العصافير[7]، وكذا كلمة " خاقان" وهي كلمة تركية بمعنى الّذي يتولّى الترك، بل تجاوز ذلك إلى نقل كلمات عامية، كقوله: "بَنْ زهو" وهكذا تضبِطها العامة، كما جاء في الشّرح[8]، وهذا كلُّه بعيد عن منازع الشّعراء الفنية لفظا ومعنىً وأسلوبا، ثم إنّه في هذا الرجز يُقدّم لنا صورةً عن نوعية الشّعر في منطقة الغرب الجزائري، اللهمّ إلّا إذا استثنينا ابنَ سحنون الراشدي في نظمه وكتاباته، الّتي اتّصف فيها بأداء لغوي وأدبي راقٍ وسيأتي معنا بيان ذلك.

3- الشّعر السّياسي في الفتح الثاني لمدينة وهران وقيمُه:

3-1 قصيدتا الثّغر الجماني والسّينية لأبي راس في فتح وهران الثّاني:

وأمّا أحداث الفتح الثّاني لمدينة وهران، فقد حظيت بمجموعة من المدوّنات النثّرية والشّعرية،التي خلّدت انتصاراتِ العثمانيين على الإسبان، وخصّصت لمحمّد عثمانَ باي الكبير مساحةً كبيرةً في تلك الآثار، خاصة إذا علمنا أنّه كان مِمّن يحبّ العلم والتّاريخَ والأدبَ ويشجّع الأدباء والعلماءَ، إذ كان يُكلِّفهم بتسجيل وتدوين تلك الأحداث على غرار ما هو الحال مع كاتبه دحو بن زرفة في رحلته، الّتي صاحبت الفتح المسمّاة: الرحلةَ القمريةَ وكذا كتاب الزهرة النائرة لابن الرقية، ونجده أيضا –محمد عثمان الباي - قد طلب الأمرَ نفسَه من أبي راس النّاصر شرحَ سينيته التي تغنى بها أبو راس لأجل انتصارت الفتح، والّتي نظمها فرحا بفتح وهران، ثمّ إشارته أيضا إلى آخر كُتَّابه أحمدَ بنِ محمد بنِ سحنونَ الراشدي، تُوفي بعد 1796م[9] ،طالبا منه بأن يكتب أيضا في فتح وهران وسيرةِ الباي، فنظمَ هذا الأخيرُ قصيدةً وشرحَها أسماها **بـ الثغرُ الجماني في ابتسام الثغرِ الوهراني**: أو الدّر والعسجد في مناقب الباي محمّد.

وتعدّ هذه المدوّنةُ شعرُها ونثرُها "من أبرز وأهمّ مَن خلّدت فتحَ وهران وسيرةَ الباي، حيث نظم منظومته أثناء الفتح يُشيد فيها بالباي وبالفتح على يديه"[10] ، فممّا قال فيها:

"حمدا لمن آزر نصر الدين ودان ناصريه أسنى الدين

وفتح الأقطار بالجهاد حتّى غدت لينةَ المِهاد"[11]

والمُتصفّح لقصيدته يجد أنّه قد اعتنى بتاريخ الجزائر في جانبه السّياسي والثّقافي، فتحدّث صاحبُها الرّاشدي عن حكّام الجزائر وعلمائِها وصلحائِها في العهد العثماني إذ بهذا الاعتبار آلت منظومتُه إلى تقييد لأعلام المنطقة في ذلك العصر، وهنا تكمن أهمّية هذه المدونةِ، بوصف المؤلّف شاهدا على تلك الأخبار والأحداث، خاصة ما تعلّق بمدينة وهران في فتحها الثّاني، وتزداد أهميتُها إذا عُلِم أنَّ الراشدي كان ملازما لبلاط الباي، وصديقَ وليّ عهده وشاهدَ عيانٍ على الفتح وأحداثه وانتصاراته.

2-3 قيمتُها التاريخية:

تكمن قيمتها التاريخية في أنّه تناول فيها أخبار الفتح الأوّل للمدينة، الذي كان على يد بكداش باشا، ثمّ ثنّى بالحديث عن الفتح الثّاني على يد الباي محمد عثمان الكبير، الذي خّصّص له جزءا كبيرا من منظومته، مُتحدِّثا فيها عن إنجازاته وعن الرباط الّذي أحياه في هذا الثّغر، الذي اعتنى به كثيرا الباي ماديا وأدبيا[12]، وشارك فيه الطلبةُ والعلماءُ، إذ استشهد فيه جمعٌ منهم، وممّن توفي فيه "الشيخ الطاهر بنُ حوا قاضي قاعدةَ الإمارة معسكر"[13] وفيه يقول الراشدي:

"فوقعت هنا لكم حُروب زيدت بها على العِدا كُروب

ومات في أوّلها المُفضّل قاضي القضاةِ الطاهرُ المُفضل"[14]

وممّا يُلاحظ في مدحه للباي وإطرائه أنَّ ابنَ سحنون جعلَ من الباي رمزا للجهاد حتّى شبّهه بصلاح الدين الأيوبي قائلا:

وصار فيه ذا عزم متين كعزم يوسفَ صلاح الدين[15]

ثم ذكر حربَه مع الإسبان في مدينة وهران وذكر منشآت الباي، وأشار إلى مرائي العلماء والصالحين، المُنبِئة لفتح وهران، وذكر الزلزال الّذي أتى على جملة من بنايات الإسبان في وهران أثناء الفتح، فقال في ذلك:

"ثم أتاه هازمُ الأحزاب لفتحها بأكبر الأسباب

فـزلزل البلاد بالكفار زلزلةً أردَتهُم في النـار

وصـيّرت بناتهم تُرابا وكلَّ عامر لهم خرابا

فأصبحوا وكلّ بيت من دونهم لحدٌ لكل ميت"[16]

وعِدّةُ هذه المنظومة اثنان وسبعين بيتا شعريا، وتعدّ إضافة ومصدرا أساسيا حول أحداث أواخر العهد العثماني في الجزائر كما أسلفنا الذكر.

3-3 القيمة الأدبية للنّظم:

تظهر من خلال الاطلاع على شرح ابنِ سحنون الراشدي على منظومته في فتح وهران، أنّ ابنَ سحنون كان ذا عنايةٍ فائقةٍ باللّغة والأدب في شِقَيهِ النّثري والشّعري، يُباين فيه تفوُّقا أدباءَ وشعراءَ عصره أسلوباً ولغةً، كأبي راس النّاصر الرّاشدي وغيره ، فترى استعمالَه للغةٍ راقيةٍ وعاليةٍ، حافظَ فيها على منظوم الشّعر دون انكسار الوزن، وعبّر عن معانيه ومراميه بلغة رقراقة يستحضر فيها وقائعَ الماضين وأمثالَهم،حيث أشار إلى هذا في مقدّمة لشرحه هذه المنظومة" إنّي خدمت حضرته الفخيمة، وأعتابَه الكريمة، بقصيدة أرجوزة سهلة الألفاظ، قريبةِ المتناول و المأخذ للحفّاظ...إذا تُليت ألفاظُها أوشكت أن تُطرب الميت، وغذا جُليت معانيها كادت أن تنوبَ عن السِّراج في البيت ، ومن بديع سرّها أنّه لا حشو فيها أحتاج الاعتذار عنه وبأنّه تميم للبيت"[17]، فأبان في هذا النص عن علوّ شأنها الأدبي، من حيث اللفظُ وسهولتُه وعذوبتُه، وجمال المعنى الذي

عبّر فيه عن وجدانية صادقة اتجاه الممدوح، ثمّ أشار إلى ابتعاده عن التملّق و التكلّف وبديعياته لم يتجمّل بها ألفاظه إلا فيما احتاج فيه إلى تتميم او تذييل أو تكميل وذلك لتحقيق مقاصده والإباحة بمكنونات حبّه لممدوحه الباي، ثمّ إنّنا نلمّس في رجزه استحضَاره للأمثال والحكم، التي تجلّت في المورث الع الأدبي القديم، وهذا لاشكّ يدلّ على اِطلاعه الواسع على تراث القوم، أيامِهم وأخبارِهم وأمثالِهم، ولولا الإطالةُ لذكرنا جملةً منها، ولا ضيرَ إذ نأتي ببعض الشّواهد الدّالة على هذا التوظيف للثقافة العربية القديمة أمثالا وحكما وأخبارا، منها قوله:

"لوكان يومُ داحس وغبرا كساهما من القتام غبرا"[18]

وقوله :

"مهامها فيها القطا يحار كـأنّما الآل بها بحار"[19]

وهذا ما يؤكّده المهدي البوعبدلي في سياق الحديث عن موسوعيته في الفنون وتمكُّنِه من اللّسان العربي، حيث يقول عنه: إنّ"أسلوبَه المتين يدلّ على أنّ المؤلف كان ضليعا في اللغة العربية، عارفا ومُذلِلا لدقائقها"[20]، ووصفه أبو القاسم سعد الله بأنّه من الأدباء البارزين أوائل القرن الثالث عشر[21].

وأمّا النّظم الأخير، الّذي يُصنّف ضمن الأنظام الشّعرية، الّتي أرّخت لمدينة وهران وذكرت مآثرها وخلّدت انتصاراتِها وسجلت سيرةَ الباي محمّدٍ عثمانَ الكبير، فهي القصيدة الّتي ألّفها أبو راس النّاصر المعسكري[22] ت1823 م، المسمّاة بـ **الحلل السّندسية في شأن وهران والجزيرة الأندلسية**: أو **الخبر المعرب الحال بالأندلس وثغور المغرب**، وهي قصيدة سينيةٌ من بحر الكامل في أغلبها، تقع في واحد وثمانين بيتا، كما هو مُرَقم في النّسخة، التي نشرها المستشرق الجنرال فور بغي، سنة 1903، وهذه القصيدة هي أصل السّينية، الّتي شرحها في كتابه عجائب الأسفار، إذ الحُلل السّندسية تضمّ تلكَ القصيدةَ، الّتي تقع في ثمانية عشر بيتا وتزيد عليها[23]، بأبيات أخرى لا تخرج في مضمونها عن المقصد العام الّذي أراده أبو راس، وقد تختلف أيضا في بعض أبياتها عن القصيدة نفسِها، التي شرحها في كتابه: "عجائبُ الأسفار"، "أدخل عليها أبو راس بعض التّعديلات حتّى تُصبحَ مناسبةً مع المقام الّذي ينوي تقديمَها إليه"[24] وهذا النظم يكمن أهميته وقيمته التاريخية من خلال ما سجّل فيه من أخبار الفتحِ ومَدْحِ مَن فتحَها، خاصةً إذا علمنا أنّ الباي محمداً عثمانَ الكبير، كان قد أنعم وأحسن إليه، فلا نستغرب تخصيصَ أبي راس الدعاءَ له ، والثناءَ عليه، والدّافعُ في ذلك هو طلب الباي نفسِه منه شرحَها له.

وهذا النّظم -أعني السينية- قد نظمَها أبو راس خارج مدينةِ وهرانَ أثناء رحلته المشرقية، إذ أنّ أبا راس كان متأثرا بما جرى للمسلمين من ضياع الأندلس ومحاولةَ غزو إسبانيا لشمال إفريقيا، فهو يعدّ تحريَر وهران تعويضا لفقدان الأندلس، فنظم هذه القصيدةَ وهو عائد من الحج، لمَّا سمِع بخبر الباي ونيتِه في فتحها، وهذا ما يُفسّر نزعته الدّينية في سرد الأخبار التّاريخية، كما يكشف ذلك محتوى المنظومة، الذي عبّر عن موقفٍ مُؤيدٍ للعثمانيين، فهو يُشيد بهم ويذكر شجاعتَهم ومواقفَهم في سبيل الدّين.ويُمكنُنَا القولَ:

4-3 القيمة التاريخية لمنظومة أبي راس:

إنّ منظومتَه لها قيمتُها التّاريخية، نظرا للمعلومات الوفيرة فيها، لا سيّما ما يخصّ أحوالَ شمال إفريقيا في العهد العثماني، إذ سجّل فيها أحداثَ فتح وهرانَ ووقائعه، مُعرِّجا على كل أحداث هذا الفتح مِن حصار ونزول وانتصار، وذكر فيه أيضا بلادَ الأندلس بلدا بلدا ،وتناول علماءَها وتاريخَها وقبائلَها وما جرى فيها مِن حوادثَ وخطوبٍ[25]، فاستهلّها بمدح الباي محمدٍ عثمانَ الكبير بقوله:

"طيب الرياح جميعَ الأرض جَسي وبشرى إليكم مع الجن والإنس"[26]

إلى أن قال:

"قاد المقانب للجهاد رائدُها يبغي كفاحَ ذوي التثليثِ و الجرسِ

حتى أقام على أرباض وهرانَ لا تُحصى عساكرُه بالعدّ والحدس"[27]

ويظهر من محتوى قصيدته أنّه تعرض إلى تاريخ وهرانَ قبل دخول الإسبان، ثمّ وصفَ احتلالَ الإسبان لها وتحريرَها من طرف بكداش، وما ميّزها هو الإطناب المُتكلّف الذي يُضعِف جمالية الشعر ورونقَه وإيقاعيتَه وخاصيته التي تجنح نحو الإيجاز دون التطويل و الإشارة بدل العبارة، وذلك خصوصا عند سرد وقائع تحريرها من طرف الباي محمدٍ عثمانَ الكبير، وإلى جانب الحديث عن وهران تحدّثَ عن قضايا تاريخيةٍ، مثلِ الجزيرة الأندلسية، وما حلّ بها، كقوله عنها:

"كانت جزيرة الأندلس طيبة عادت بقدر الفواق أقبح ضبس"

يا حسرة لمعالم الإيمان بها فصــارت مدّته كــسنة كبس"[28]

ثمّ عرّج على أخبار المغرب الأقصى وتحدّث عن سكانه وقبائله، وتحدّث أيضا عن تونسَ ومدنٍ جزائريةٍ اخرى، لكن المدينةُ،الّتي أخذت منه حصةَ الأسد مِن قصيدته، هي وهران، تعرّض إليها

بجميع مراحل تاريخها، منذ تأسيسها حتّى احتلالِ الإسبان لها وفتحِها من طرف الباي محمدٍ، فاستحوذت على النّصيب الأكبر من المنظومة، وهو الذي يمثّل الشّق الثاني من القصيدة من بين أقواله عنها:

مدينة حلّها التوحيد مبتسما جذلانَ وارتحل التثليثُ في فاس

وقوله:

مدينة العلم والإيمان حلّ بها .....

وقيضّ الله الأتراك بمزغنة لحرب وهران دارِ الشرك والألس[29]

وقال:

فمرتين ابتاعوها غيرَ غالية كيف يُباع ثغرُ وهرانَ بالبخس[30]

ثمّ قاده الحديث في ذكرِ أبرز علمائها وصلحائها كسيّدي الهواري وتلميذِه إبراهيمَ التّازي دفين وهران، في قوله:

"في وقته كان خطيبُها وعالمُها محمدُ ذو المقدار القدم والحجس

خلفه من بعد موته تلميذُه إبراهيمُ الذي كان يسمو برجس"[31]

5-3 الخصائص الفنية للقصيدة:

الظّاهرُ على خصائص شعره الفنية سواء أكان على مستوى اللّغة أم على مستوى الإيقاع، أنّه يغلب عليها ركاكةَ الألفاظ وضعفَ التركيب، فيغلب على شعره الطّابع التّاريخي الحِكائي والفقهي، لذا ابتعد قليلا عن كثرة السّجع والصّناعة اللفظية، وجاء أسلوبه بسيطا واضحا يقترب من العامية، بل وفي بعض المرات بالعامية كقوله:

"مدافعا وبونبات أحاط بها كأنها بينهم كحلقة الجلس"[32]

إضافة إلى أنّ القصيدةَ مُكسّرَةُ الوزن، وبعضَها لا يستجيب حتّى لنظام الأوزان، مع أنّه ذكر في شرحه عليها أنّها من البحر الكامل[33]، وهي سمة بارزة في شعره، وهذا ما أكّده أبو القاسم سعد الله، حيث قال عن شعره "وتدّل قصائده على أنه كان لا يتقيّد بالوزن رغم أنّه كان يكتب بالفصحى"[34].

4- خاتمة:

نخلص في الأخير إلى:

- أنّ الأنظام الشّعرية في العهد العثماني في الجزائر أدّت دورا تاريخيا ،سجَّلت فيه أهمَّ المحطات السّياسية ،الّتي مرّت بها مدينة وهران أثناء الاحتلال و الفتحِ والتّحرير، تحت قيادة حُكّام العثمانين، بأسلوب أدبي شعري يستجيب في أغلبه إلى الثّقافة الأدبية المنتشرة آنذاك، والّتي تركز بشكل وفير على الجانب الزخرفي في قوالبها اللفظية نثرا وشعرا، مشوبة في بعض الأحايين باللّغات العامية للمنطقة.
- ونلحظ أيضا أنّ هذه المدوناتِ الشعريةَ السّياسيةَ، التي أرّخت لفتح وهران وغيرِها، لو جُمعت مِن هذه المدوّناتِ، كالتحفة المُرضية و عجائبِ الأسفار وغيرِهما، لحصّلنا في ذلك ديوانا شعريا كبيرا لفترة العهد العثماني في الجزائر.
- وبلاحظ على المنظومات المذكورة سابقا، والتي جاءت في سياق فتح وتحرير الثّغر الوهراني، حيث يغلب على أكثرها مدحُ الحكّام العثمانين، والحديث عن سيرهم الذاتية، كالحلفاوي عن الباي بكداش، وأبو راس النّاصر، وابن سحنون عن الباي محمد عثمانَ الكبير.
- ممّا يلاحظ أيضا في هذا العصر في الجزائر،هو طغيان الشعر السّياسي التاريخي على جميع أنواع الشّعر الأخرى، ما عدا الشعر الديني وذلك يعود بالدرجة الأولى إلى استمرار الجهاد بين الجزائر وجاراتها من الشّمال.
- إنّ بعض الأنظام كما هو الحال مع رجز الحلفاوي والحلل السّندسية، التي وظّفت بعض الكلمات باللغة الدّارجة، ومن خلالها نستطيع التّعرف على اللّهجات الغربية آنذاك و تطورها في زمننا الحاضر.

- قائمة المصادر والمراجع:

1. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار البصائر ، طبعة خاصة ،الجزائر، 2007.
2. أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة، ط1، الجزائر، 2013.
3. أبو زيد عبد الرحمان الجامعي الفاسي، شرح أرجوزة الحلفاوي، تحقيق حمدادو بن عمر والعربي بوعمامة، منشورات وزارة الشؤون الدينية و الأوقاف، ط1، الجزائر، 2015

4. محمد بن ميمون الجزائري، التّحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تحقيق محمد بن عبد الكريم، دار الوعي، ط1، الجزائر، 2018.
5. ناصر سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1999.
6. سي محمد يوسف، دراسة مخطوط عجائب الأسفار، مجلة الدراسات التاريخية، جامعة الجزائر، العدد2، 1986.
7. محمد أبي راس الناصر، الحلل السندسية في شأن وهران والجزيرة الأندلسية، ترجمة وتعليق الجنرال فور بيقي، مطبعة بير فونطانا، الجزائر، 1903.
8. محمد أبي راس الناصر، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، تحقيق محمد غانم، منشورات الكراسك، الجزائر.

[1] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار البصائر ، طبعة خاصة ،الجزائر، 2007، ج2 ص241.

[2] أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة، ط1، الجزائر، 2013، ص18.

[3] أبو زيد عبد الرحمان الجامعي الفاسي، شرح أرجوزة الحلفاوي، تحقيق حمدادو بن عمر والعربي بوعمامة، منشورات وزارة الشؤون الدينية و الأوقاف، ط1، الجزائر، 2015، ص34. ومحمد بن ميمون الجزائري، التّحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تحقيق محمد بن عبد الكريم، دار الوعي، ط1، الجزائر، 2018، ص245.

[4] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2 ص337.

[5] ابن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، ص157.

[6] شرح الجامعي على رجز الحلفاوي ص74.

[7] المرجع نفسه، ص103.

[8] المرجع نفسه، ص134.

[9] ناصر سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1999، ص439.

[10] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2 ص342.

[11] ابن سحنون الراشدي، الثغر الجماني، ص101.

[12] المرجع نفسه، ص83.

[13] المرجع نفسه، ص83.

[14] المرجع نفسه، ص243.

[15] المرجع نفسه، ص173.

[16] المرجع نفسه، ص210.

[17] ابن سحنون الراشدي، الثغر الجماني، ص98

[18] المرجع نفسه، ص330.

[19] المرجع نفسه، 379.

[20] المرجع نفسه،

[21] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2 ص174.

[22] ومن أوسع الترجمات له ما قدمه عليه أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2 ص376. وينظر : ناصر سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، دار الغرب، الإسلامي، ط1، 1999، ص460.

[23] سي محمد يوسف، دراسة مخطوط عجائب الأسفار، مجلة الدراسات التاريخية، جامعة الجزائر، العدد2، 1986، ص141.

[24] سي محمد يوسف، دراسة مخطوط عجائب الأسفار، ص141.

[25] ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر، ج2 ص331.

[26] محمد أبي راس الناصر، الحلل السندسية في شأن وهران والجزيرة الأندلسية، ترجمة وتعليق الجنرال فور بيقي، مطبعة بير فونطانا، الجزائر، 1903، ص02.

[27] أبو راس الناصر، الحلل السندسية، ص03.

[28] المرجع نفسه، ص11.

[29] المرجع نفسه، ص15.

[30] المرجع نفسه، ص19.

[31] المرجع نفسه، ص05.

[32] هذا البيت ذكره أبو راس في سينيته التي شرحها في عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، تحقيق محمد غانم، منشورات الكراسك، الجزائر، ج1 ص410. ولم تُذكر في الحلل السندسية.

[33] سي محمد يوسف، دراسة مخطوط عجائب الأسفار، ص141.

[34] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2 ص177.